.....

.....

انجازات علماء المسلمين في عصورهم الأولى؛
بين تدبر النص القرآني وقراءة الواقع

د. حسين صبري
أستاذ الفلسفة الإسلامية المشارك
جامعة زايد – دولة الإمارات العربية المتحدة
dr.hussein.sabry@gmail.com

ملخص البحث:

قدَّم المسلمون أداءً علميًّا دقيقًا في ممارساتهم العلمية الأولى، تفاعلوا مع النص القرآني؛ فهمًا وتدبرًا، ولم يغادروا واقعهم، واتصلوا بمن سبقوهم في المعرفة وترجموا لهم، فزادوا فهمًا، وأضافوا، ورتبوا أولوياتهم في العلم، حيث أوْلَوْا أهميّة قصوى للمنبت الذي ينشأ فيه العالم وأثره في مصداقيّة ما يأتيه من علم، وعقد المؤرّخون منهم فصولًا في بيان الخصال التي يجب أن يكون عليها العالم، انصبّ أغلبُها على الطباع النفسيّة والأخلاقيّة، لأنّ ميزان الضبطْ والعدالة في العلم يعني عندهم "**الروح العلمية**" التي يفخر بها العلم المعاصر وكان المسلمون روّادها، ولم تكن الروح العلمية التي تحلّى بها علماء المسلمين جَهدًا نظريًّا وحسب، فقد مكّنتهم من تطبيقات عدة في العلوم، وتحديدٍ للمفاهيم والمصطلحات في فروع العلم الطبيعي والإنساني والشرعي، ومكّنتهم جهودهم من "**العقل التجريبي**"، حين أدركوا قوة العلاقة بين توجيهات النص القرآني ومعطيات الواقع الذي يعيشونه، فأوصلهم تدريجيًا إلى نوع متفرد من التجريبية التي يصح أن يُقال عنها: إنها "**تجريبية إسلامية**"، فاستخدموا الاستقراء، والنقد، واستعانوا بأدوات العلم، وحدَّدوا بشكل صريح منهجًا للمقارنة أسموه "المقايسة". وأسسوا "**الشكّ المنهجي**"، طريقًا علميًا، وأفردوا قواعده، ومقدّماته، ونتائجه، وأبدعوا منهجًا للتأريخ، وكان من أبرز ما توصّلوا إليه في مجال توكيد الحقائق العلمية؛ هو قاعدة "**الإسناد**" التي لا تقلّ قيمة وأثرًا عن "التجريبيّة" في العلم، حتى صار "الإسناد" علمًا قائمًا بذاته، وشاعت إبداعات المسلمين في كافة صنوف العلم، مما دل على

.....
.....

موسوعية العلماء واتساع جهدهم العلمي، وما كان للعقل المسلم أن ينال كل هذا الحظّ من "المنهجيّة" إلا بأثر من جهدين متوازيين، ومستمرين معًا؛ هما: تدبر الوحي القرآني وقراءة واقعهم الإنساني.

والذي أدي إلى بلورة إشكالية الدراسة؛ تمثل في الربط – الذي ادّعاه بعض المستشرقين والسائرين على نهجهم – بين نصوص الوحي القرآني ومجافاة العلم، وبما يروجه البعض من أن الوحي القرآني جاء فقط للتعبد، وأن العقل المسلم؛ غير مُستعد بطبعه لخوض غمار العلم وتطبيقات المناهج، وهذا مما شكَّل **فرضيات** عدة، أهمها:

كيف قرأ المسلمون نصوص الوحي واستقاموا في فهم دلالاته، وإلى أي مدى اتصلوا بواقعهم وعقلوه وتجاوبوا مع مقتضياته بروح علمية وعقل تجريبي تفردوا به عمن سبقوهم؟

وسوف تعتمد الدراسة للتحقق من فرضياتها هذه؛ **منهجًا** تاريخيًا تحليليًا نقديًا؛ لاستقراء أبرز إضافات المسلمين فوق ما أخذوه ممن سبقوهم من الحضارات الأخرى خاصة اليونانية، ولتوكيد قدرة العقل المسلم على التأسيس وليس الإسهام في تخصصات العلم وتطبيقاته، وتحليل إبداعات العلماء في شتى مناحي العلم وبيان معياريتها وروابطها مع دلالات الوحي وأثرها في واقعهم.

الكلمات المفتاحية:

الروح العلمية؛ العقل التجريبي؛ التجريبية الإسلامية؛ الشك المنهجي؛ الإسناد.

مكونات البحث:

- أبعاد القراءة
- تطبيقات علمية
- مناهج غير مسبوقة

.....
.....

أبعاد القراءة:

إنّ ملكات العرب العقلية والنفسيّة واللغويّة مكّنتهم من قراءة النصّ القرآني بتأمل وشغف غير محدود، لأنه "إنّما يفهم بعض معانيه، ويطلّع على أسراره ومبانيه، من قوى نظره، واتسع مجاله في الفكر وتدبّره، وامتدّ باعه، ورقّت طباعُ، وامتدّ في فنون الأدب، وأجاد بلُغة العرب"[1]، هكذا يقول الزركشي. ويُلاحَظ أنه اعتبر الفهم غير قادر على الإحاطة بكلّ معاني النصّ، لكن جعل له في كلّ قراءة تجلّيًا جديدًا في الفهم، حيث إنّ من مقتضيات الدقة في العلم عند قراءة مفردات اللغة من النصّ القرآني؛ التقيد بـ :

- التخلّي عن الأفكار الأوليّة والأحكام المسبقة
- مجانبة التعصّب النفسي، وضيق الأفق
- وجود الخبرة الرصينة في تعاطي فنون اللغة وآدابها

هكذا اجتهد علماء الإسلام في تصنيف الضوابط التي تحكم عملية القراءة المطلوبة للنصّ القرآني، فاعتبروها ضرورة لكلّ ما نشأ من علم، وحاول الزّمخشريُّ أن يوجزها فيمن "برع في علم المعاني والبيان، وكان كثير المطالعات طويل المراجعات، فارساً في علم الإعراب، مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقّادها، يقظان النفس، متصرّفاً دربأ بأساليب النّظم والنّثر"[2].

لأنّ محاولة العقل في فهم النصّ القرآني تعطي صاحبها رأيًا، لا نعني وجهة نظر خاصة، وإنما نعني فهماً ما لدلالة النصّ، ولهذا قيل: "إنّ الرأي نشأ منذ عهد الإسلام الأوّل في

1) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة ج1، ص: 5.

2) الزمخشري: الكشاف، ج 1، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكل، الرياض، ص: 16، 17

.....
.....

ظلّ القرآن ورعايته" [3]، وربّما مكّنت محاولة العقل صاحبها؛ من بناء أفكاره التي توصله إلى العلم، وبسبب من ذلك فقد أُعتُبر "أنّ التفكير العربي المتناثر والذي لم ينتج من قبل علمًا أو فكرًا متناسقًا – بعد نزول القرآن – بدأ يتجمّعُ ويتركّب"[4]، وربّما أوصلت القراءةُ صاحبها إلى العلم، فقد قيل: "إنّ القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشرع وأساسه، وأصل كلّ علم ورأسه" [5]، وربّما وجّه النصّ القرآني القارئ إلى أن يختصّ بشأن متخصص من العلم دون غيره، فقد ظهر ذلك في الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث اختصّ كلّ منهم بنوع من العلم؛ كعليّ رضي الله عنه بالقضاء، وزيد بالفرائض، ومعاذ بالحلال والحرام، وأُبيّ بالقراءة، وابن عباس بالتفسير" [6]، كما أنّ تأسيس العلم نابعًا من قراءة النصّ القرآني يسري عليه ما يسري على كلّ قراءة لما عداه من نصوص لغويّة وأحداث وظاهرات وأحوال شرعية، بشريّة، أو طبيعيّة؛ وهذا ما يُقصد به "تراكميّة المعرفة"، أي الطريقة التي بها يتطوّر العلم ويعلو صرحه، فالمعرفة العلمية "بناءٌ يشيد طابقًا فوق طابق، وسكان هذا البناء ينتقلون دومًا إلى الطابق الأعلى، وما سبق من طوابق هي أساسٌ يرتكز عليه البناء" [7] وما نلاحظه في هذا القول؛ أنه قد ورد لفظان، لكلّ منهما دلالةٌ بالغة:

- لفظة "**تشييد**" الدالة على أنّ العلم يُؤَسّس والمعرفة يتمّ انتزاعها من مكامنها.

3) مصطفى عبد الرزاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص: 134

4) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص: 31

5) القسطلاني: لطائف الإشارات، تحقيق: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1972 ج: 1، ص:6

6) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج: 1، ص: 8

7) فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، عدد مارس 1978م، ص: 15، 16

....

- ولفظـة "**البنـاء**" والتـي مـن دلالاتهـا التراكميّـة فـي العلـم، والتخصّصـيّة، بـل والإمعـان فـي التخصّصـيّة؛ لأنّ العلـم كلّمـا أمعـن فـي التخصـص، اتسـعت إحاطتـه بجزئيّـات القضـية، وزاد مـن كشـفه لشـبكة العلاقـات البنائيـة بـين موضـوعات المعرفـة، وأمـدّ العلـم والعلمـاء بآفـاق أكثـر رحابـة مـن البحـث والتحـرّي، وهـذه ميـزة كبـرى مـن ميـزات العلـم المعاصـر، لأنّ "سبق أمّـةٍ لأمّـة، بـل إن سـبق فـردٍ لفـرد فـي مضـمار التّمـدّن، إنّمـا يرجـع فـي الأسـاس إلــى الفـرص التــي تبعـث الهمـم وتحفّـز إلــى الخلـق والإبـداع" [8]، فكيـف إذا كانـت عمليّـة التمكـين مـن الفـرص هـي عمليّـة مقصـودة مرتّـبٌ لهـا ترتيبًـا ربّانيًّـا مـن عنـد الله عـز وجـلّ، تجلّـت فــي آيـات الله تعـالى المعبّـرة عـن وحيـه سـبحانه قرآنًـا، يجـب تلاوتـه آنـاء الليـل وأطراف النهار.

ولا ينبغـي أن يقتصـر فهمنـا مـن تـلاوة الآيـات القرآنيـة علـى الدلالـة المباشـرة للـتلاوة؛ بـل يتجاوزهـا إلـى العمـل بمقتضـاها فـي إبـداعات العلـم والـنُظم "**ولقـد يسّـرنا القـرآن للـذّكر فهـل مـن مـدّكر**" {القمـر: آيـة: 17}، فـالغرض الأساسـي فـي الـدين "إنمـا يكـون فـي تعبيـر كـل فـرد عـن بالعمـل كعضـو فـي المجتمـع المسـلم بمـا ينبنـي عليـه الاسـلام"[9]، لهـذا يقـيّض الله تعـالى فـي كـلّ عصـر للـوحيِ مـن يرعـاه، وهـذا مـا نريـده روحًـا يسـري فـي أوصـال الأمّـة ،وقـد نهضـت فـي العقـود الأخيـرة مـن القـرن العشـرين أنشـطة وفعاليـات ومسـابقات عـدّة فـي حفـظ القــرآن وتجويــده، وإتقــان أحكامــه، ووجــوه إعجــازه ،وأحيانــاً تفســير آياتــه وأسـباب نزولهــا، ترعاهـا حكومـات وهيئـات وأفـراد، وتشـتدُّ وتيرتُهـا فـي شـهر الصـوم. هـذا فعـلٌ محمـود ومُقـدّر، يقـوى أثـرُه، وتعلـو قيمتـه، ويبلـغ تمامـه إذا مـا اقتـرن بجهـد يوازيـه فـي تحليـل وبحـث وتقصّـي واستكشـاف دلالات الـنصّ القرآنـي، وفـق ضـوابط مُقنّنـة، يضـبط معاييرهـا أهـل الاختصـاص،

8) قدري حافظ طوقان: علماء العرب؛ منشورات الفاخريّة، الرياض، ص: 13

9) Reza Aslan: No God but God, Random House Trade Paperback, New York, 2011, p 147

.....
.....

لتنهض حركة علميّة، وبحثيّة، تجتهد في استنطاق المعاني، وسبر أغوار النصّ القرآني الذي لا تنقضي عجائبه، تسير جنبًا إلى جنب مع ما تقوم به المؤسسات العلمية الدينية المعتبرة كالأزهر الشريف، والمعاهد والأقسام التي تعهد لطلابها بالدراسات التخصصية التي تتوجه إلى فهم القرآن، ولهذا نهضت عديدٌ من محاولات ضبط القراءة المنهجيّة لنصوص الوحي، من ذلك ما حكاه الخطيب الإسكافي في منهج تأليفه علم متشابه القرآن اللفظي "إني منذ خصّني الله تعالى بإكرامه وعنايته... تدعوني دواعٍ قويّة، يبعثها نظر ورويّة، في الآيات المتكرّرة، بالكلمات المتفقة، والمختلفة، وحروفها المتشابهة المتعلّقة، والمنحرفة تطلّباً لعلامات ترفع لَبس إشكالها، وتخصّ الكلمة بآيتها، دون أشكالها، فعزمت عليها بعد أن تأمّلتُ أكثر كتب المتقدّمين، والمتأخّرين، وفتّشتُ عن أسرار معاني المتأوّلين المحقّقين المتبحّرين" [10]. إن هذا النصّ يُفصح عن أنّ مؤلّفه:

- يقدّم فضل الله عليه في العناية بالعلم، هو بهذا يؤسس إيمانيًا لمنهجه في درس كلام الله تعالى، وما يقابله من رغبته الذاتية في الأخذ بأسباب العلم من البحث والنظر والتحصيل.
- يحدّد "**موضوع العلم**" في الآيات، والكلمات، والحروف من كتاب الله عزّ وجلّ التي يظنّ البعض فيها تكراراً.
- يحدد "**منهج الباحث**" الّذي ينبني على الاطلاع على ما سبق من جهد الأولين في العلم، هو بهذا يؤسس للتراكمية المعرفية في العلم.
- وأخيرًا؛ يوضّح "**غاية العلم**" في بيان المتشابه اللفظي في القرآن لأرباب العقول من المسلمين، ولردّ شبه الجاحدين والملحدين ممن سواهم، لهذا السبب يشدِّد الكندي على

10) الخطيب الإسكافي: درّة التنزيل وغرّة التّأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أمّ القرى، السعودية، ط 1، 1418هـ، ج 1، ص: 218، 219

.....
.....

المنهجية في كلّ علم، مثلما يُشدّد على ارتباط المنهج بموضوع العلم، إذ يقول: "ينبغي أن تقصد بكل مطلوب ما يجب، ولا تطلب في العلم الرياضي إقناعًا، ولا في العلم الإلهي حسًّا ولا تمثيلًا، ولا في أوائل العلم الطبيعي الجوامع الفكرية، ولا في البلاغة برهانًا" لأنّ مخالفة ذلك عنده – أي مخالفة المنهج لموضوع العلم – نتيجته "عسر علينا"[11] أي ضياع لنتائج العلم.

إن عملية الارتباط بين موضوع العلم ومنهجه من المقتضيات الأولى للمنهجية التي أرسى القرآن قواعدها، لأنها عملية قائمة على علم نبّه القرآن اليها "فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون" {النحل، آية 43} فالنصّ محفزٌ للسؤال، وهو مَعْنيٌّ بتحديد من له حقّ الإجابة، ولعلّنا نستطيع القول: إنّ أساس العلم بالشيء ينحصر في السؤال عنه وفي إجابته، ليس في الشرعيات وحدها، بل في الطبيعيات والإنسانيات، فإنّ "الدّقّة تأتي من طرح الأسئلة، وهي التي تقود إلى الاكتشافات العلمية"[12]، والكشفُ العلمي إنما هو إجابة لما استشكل على العقل فهمه، وإشارات النصّ القرآني تنبني على الفهم؛ لأنّ منطوق الآيات يشير إلى ضرورة "فهم روحها وغرضها معاً" [13]، حيث يمتزج روح الإيمان مع روح العلم، ولعله نتيجة لهذا الامتزاج "كانت عناية القرآن دائماً بالجوهر والمخبر أشدّ منها بالصورة والمظهر" [14]، فالنصّ القرآني يدفع العقل إلى استجلاء المجهول طبقة بعد طبقة، مثلما يدفعه في مسار العلم إلى تجاوز الظاهر الذي ربّما يصرف العقل عن غايته في فهم دلالات النصّ؛ فالقرآن "لا يقتصر على مواضع العظة ولا يتعرّض لتفصيل جزئيّات

11) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية (كتاب الكندي إلى المعتصم) تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 2، ص 45.

12) Ali Ansari: Sufism and beyond, Mapin Publishing, Ahmed Aad, India. 1999, P.86

13) Oliver Leaman: An Introduction to classical Islamic Philosophy. Cambridge University press. United Kingdome. P. 15

14) محمد دراز: من خلق القرآن، مطبوعات إدارة الشئون الدينية، قطر، 1979، ص: 17

.....
.....

المسائل كالتواريخ والأسماء والأشخاص"، إنّه يتخيّر ما يمسّ جوهر الموضوع وموضع العبرة"[15]؛ لأنّ للنصّ القرآني أبعادًا ينبغي الجمع بينها وتداركها معًا، إذ لا ينفصل في كل آية من آياته البعد الإرشادي عن البعد اللغوي، أو البعد الإنساني، أو البعد المعرفي، أو البعد الإيماني.

وإن التئام هذه الأبعاد عند قراءة النص فيه تبريرٌ كافٍ للفيض المعرفي الذي ساد الفكر بين المسلمين منذ العهد الأول للرسالة؛ فلقد "أعان القرآنُ المتصوّفةَ كما أعان المتكلّمين والفقهاء على نصرة آرائهم، لأنّ كتاب الله قاموسٌ للنحاة واللغويين، ومثارُ فلسفة للباحثين والمفكرين، وذكرٌ يتقرّب به المبتهلون والمتضرّعون، وقانونٌ يرجع إليه المشرّعون، وعقيدةٌ يحتج بها المتكلّمون، ويعتمد عليه أصحاب الآراء والنظريات الجديدة".[16]؛ فالقرآن وهو يُقدّم النظريات الكونية والفلسفيّة، يُصوّر الألوهيّة، ويضع قواعد للسلوك حتى قيل إنّ "جميع من شغل بالتفكير فلسفياً في الإسلام قد حاول أن يستند إلى القرآن"[17]، حيث لم يكن القرآن محورًا للحياة اليوميّة، أو التطلع إلى نشر الدين الحق، أو توطيد دعائم الإيمان والأخلاق بين الناس وحسب، بل ويظلّ محورًا لكلّ فكر أينع في وعي المسلمين. إنّ قوام القرآن الذي نتلوه ليل نهار بناءٌ لغويٌ أُحكم بنيانه، كي تظل اللغة القرآنية مصدرًا خصبًا لحضارة الإسلام العلمية، لذا فقد أصاب الفارابي عندما "يصف كيفية نشأة العلوم الحضاريّة كلّها ابتداءً من اللغة" [18]؛ فالخطابُ القرآنيُ فيه إيعازٌ وتحفيزٌ للعقل ألا يقف نشاطه الفكري على علم دون غيره، أو أن تنحصر منهجيّته في قراءة النصّ على ضابط

15) أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 10، ج 1، ص: 332

16) ابراهيم مدكور؛ في الفلسفة الإسلامية، سميركو للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، ج 1، ص: 59

17) النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلامي، ج 1، ص: 31: 33

18) ابراهيم مدكور: الفارابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1983م، ص: 123.

.....
.....

دون آخر، وكان تدرّج العقل مع النصّ طبيعيًا منذ اللحظة الأولى، إذ توجّه الاهتمام الأول لتدوين النصّ القرآني، فكان الحفظة، وكانت المراجعات، وكانت تطبيقات النصوص. حتى كانت حياة محمّد صلّى الله عليه وسلّم في صحابته هي تجسيد للنصّ القرآني؛ في شخصه وفعله وقوله وتقريره.

وكان للوعي بين المسلمين إرادته التامة في أن يعي قيمة فهم النصّ القرآني مؤيّدًا بالنصّ النبويّ، وأن يفهم النصّ النبويّ مؤيّدًا بالوحي القرآني، أدى به ذلك إلى أن يستخلص **منهجيّة الربط بين علم وآخر**، وبقي هذا سمتًا إسلاميًّا، تعدّاه إلى **الرّبط بين العلوم**، هذا ما يندفع إليه العلم المعاصر اليوم بحكم الصلاة الدقيقة والمعقّدة بين التخصّصات العلمية المختلفة، ففي تفسير القرآن كان جائزًا أن يتصدى للتفسير من كان جامعًا للعلوم التي يحتاجها المفسّر، وهي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، المعانين البيان، البديع، القراءات، أصول الدين، أصول الفقه، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، الأحاديث، والسنن والآثار المبيّنة،, وأخيرًا علم الموهبة" [19]، ونرى في هذا التوجّه رأيًا على غير ما اعتاد الآخرون، إنه يؤخّر الموهبة والاستعداد الفطري، ويقدّم ما عداها من الصفات الدالة على الجهد والكسب في العلم، وفي هذا نموذج آخر لحيويّة العقل المسلم في مواجهة الوحي، وربّما كان ذلك هو المُنشئ لموسوعيّة البحث عند مفكري الإسلام طوال القرون الخمسة الأولى من الهجرة، إلى جانب الربط بين جيل وجيل في العلم نفسه، والربط بين النظري والتطبيقي منه، ربما لهذا قيل: إنّ ظهور أبي حنيفة كان تتويجاً لحركة علميّة نشأت في الكوفة نتيجة للأثر العلمي الذي أوجده ابن مسعود"[20]، وتوالى هذا المنحى في عامّة ما كتبه مؤرخو الفكر في الإسلام، من كتب السِّير، والطبقات، والتراجم، والفتوح، والأنساب، والتاريخ، والتعريفات، فدلّ على منهجيّة علميّة جديدة وطّد لها وعي المسلمين بالنصّ القرآني. يقول صاحب الفهرست: "أخذ عن أبي الأسود جماعة منهم: يحيى بن يعمر، وعتبة

19) شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة، دار الأنصار، القاهرة، ط 1، 1980م، ج 2، ص 280 وما بعدها.

20) أحمد أمين: فجر الاسلام، ص 184

.....
.....

بن معدان، وميمون بن الأقرن" [21]، ولم يفته وهو يُذكِّر العرب المشهورين الذين سمع عنهم العلماء، وشتّى من أخبارهم، وأنسابهم أن يربط بشكل عجيب بين العالم في نتاجه العلمي ونَسَبه؛ مِمّا يدلُّ على أنّ المسلمين أوْلَوْا أهميّة قصوى للمنبت الذي نشأ فيه العالم وأثر ذلك في تحديد مصداقيّة علمه، هذا أدّى أن يعقد المؤرّخون فصولًا في بيان الخصال التي يجب أن ينالها العالم، ليكون له العلم، انصبّ أغلبُها على الخصال النفسيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة أيضًا، لأنّ ميزان المحدثين هو الضبطْ والعدالة: والعدالة تعني خُلُوّ المحدّث من خوارِم المروءة الشاملة للأقوال والأفعال؛ لدرجة أنهم كانوا يكرهون الأخذ عمن يرونه يبصُقُ وهو متّجهٌ نحو القبلة ، وكأنّه نوعٌ من الاختبار وشكل من التّقييم، الهدف منهما إثبات أنّ الفكر نتاج المربّي والتنشئة. يقول ابن عبد ربه: "لا يكون العالم عالمًا حتّى تكون فيه ثلاث خصال: لا يحتقر من دونه (إشارة إلى التواضع)، ولا يحسد من فوقهُ (إشارة إلى مجانبة النفس والهوى) ولا يأخذ على العلم ثمناً (إشارة إلى النزاهة والحيادية)" [22]. فهل "الروح العلمية" التي يفخر بها العلم المعاصر شيءٌ فوق هذا!

تطبيقات العلم:

لم تكن الروح العلمية التي تحلّى بها علماء الإسلام جهدًا نظريًّا بحتًا وحسب، فإنّ هذه الروح قد مكّنتهم من تطبيقات العلم، وأوّلها اهتمامهم بتحديد المفاهيم وبيان المصطلحات في كافة فروع العلم، توزّع هذا الاهتمام بين:

- إعادة إحياءٍ المفاهيم المتداولة
- استقبال واعٍ للمفاهيم الوافدة عبر الترجمة من اللغات الأخرى
- تأسيس لمفاهيم جديدة ومبتكرة

21) شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة، دار الأنصار، القاهرة، ط: 1، 198، ج 2، ص: 280

22) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983م، ج 2، ص: 87.

.....
.....

التئم في هذا الاهتمام فحص الدلالات الاشتقاقية والاصطلاحية معًا، ما أدى إلى حركة إحياء فعالة في مجالات اللغة والعلم، لم تهدأ طوال العصور الأولى، كان لها نزوع قويّ إلى **التخصّصيّة** و**الموسوعيّة** في آن واحد، وذُكر أنّ المسلمين كان لهم السبق في صناعة المعاجم؛ فهي بمثابة "الحراس للغة القرآن الكريم"[23]، ففي العصر العباسي ظهرت مدرسته الأولى على يد الفراهيدي بكتابة "العين" الذي يُعدّ أوّل معجم صوتي شهدته البشرية، ثمّ تتابعت مدارس المعاجم المختلفة؛ كان اهتمامها الأول بالمواد اللغوية، ومع اتساع الفتوحات وازدهار فنّ الترجمة ظهر نوع آخر من المؤلّفات قامت بجمع وشرح مصطلحات الفنون والعلوم، كما في "مفاتيح العلوم" للخوارزمي، و "التعريفات" للجرجاني، و"كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي.[24]، هذا فضلًا عمّا احتوتْهُ مؤلّفات علماء المسلمين في الأدب والعلم منثورًا في صفحاتها من مفاهيم واصطلاحات، كان المُنشئُ لها في أصلها هو جهد المجتهد في بيان مفردات القرآن واستنباط دلالاتها ومعانيها من واقع لغة العرب التي أبدعتها وصانتها أشعارهم وأمثالهم وقصصهم قبل نزول الوحي، وكان كثير من العلماء يغشاهم الكدر أن يخبو العلم بين الناس، ويتنطع الجهّال ومُدّعو العلم، فما زال هؤلاء العلماء يروّجون لدقيق العلم وأصيل المعرفة، بل ويجتهدون في تشييد العلوم، أو كما أسموها "فنوناً".

وقد أيقن العلماء ما في التخصّص العلمي من قيمة تُعلي شأن العلم وشأن العالم، يقول صاحب "عيون الأنباء" عن ابن الهيثم: "لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقْرُبُ منه، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف" هذا من جهة العلم، ثم يضيف إليه

23) عبد الحميد محمد أبو سكين: المعاجم العربية، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 1981م، ص 3.

24) محمد صدّيق المنشاوي: مقدّمة تحقيق معجم التعريفات للجرجاني، دار الفضيلة، القاهرة، ص: 3.

.....
.....

وصفًا أخلاقيًا بديعًا في أنه أيضًا كان "وافر الزهد محبّاً للخير" [25]؛ مما يُفصح عن الروح العلمية لدى المسلمين، وعن التناغم الإيماني المنهجيّ الذي كان متلازمًا في نصوص الوحي القرآني، يعبر عنه الخوارزمي في بدء كلامه عن الجبر والمقابلة حين يقول: "ألفت كتابًا مختصرًا حاصرًا للطيف الحساب وجليله، لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم، وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكري الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه"[26]، حيث يظل النص القرآني وواقع المسلمين دافعيَن متكاملين للإبداع، ويعبران دائمًا عن تناغم بين تدبر النص وقراءة الواقع.

لم يتخلَّ هؤلاء عن أثر هذا التناغُم، ولم يبتعد عنهم؛ ظهر ذلك في آثارهم المكتوبة وأفعالهم الموثوق بمصادرها التي نقلتها إلينا، ولزمهم في بحثهم وكتبهم وتطبيقاتهم للعلم، فلم يتوقّف نزوعهم الإيماني عن مصاحبتهم، فلا يفتتح أحدهم كتابه إلا بالحمد لله والصّلاة على رسوله الكريم، صلّى الله عليه وسلم، والدعاء لنفسه وللمؤمنين، وحثّ نفسه والآخرين على تحرّي الصدق وإثبات الحق، استوى في ذلك من كتب في العلم الشرعي، أو الطبيعي، أو الإنساني، فقد أتى ذلك الخوارزميّ والمبرد والجاحظ وابن عبد ربه وابن النديم والتوحيدي وابن قتيبة وابن صاعد وابن أبي أصيبعة والكندي والفارابي وابن سينا، مرورًا بكافة أعلام الفقه واللغة والكلام والفلسفة والتصوّف، وصولًا إلى ابن رشد وابن خلدون؛ فصارت الدعوة إلى الإنصاف والحقّ والصدق والمعرفة "تدخل في مقدّمات الكتب القديمة" [27]، يقول الجاحظ في مستهل كلامه في "البيان والتبيين": "اللهم إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العلم، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من

25) ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، تحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص: 550

26) الخوارزمي: كتاب الجبر والمقابلة، تقديم وتعليق: علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد، مطبعة بول ماريبه، 1937 م، ص 16

27) قدري حافظ طوقان: علماء العرب، ص: 83.

.....
.....

السلاطة (حدّة اللسان والصّخب) والهذر (كثرة الكلام في خطأ)" [28]. فأيّ دافع يمكننا أن نتخيّله هو ما أدّى بهؤلاء الكتّاب إلى تصدير كتبهم بمثل هذا؟ إلا دافعً إيمانيًّ صنعته في نفوسهم عقيدةٌ نقيّة خالصة، وأثرٌ قويّ من تدبر فعَّال للوحي القرآني، هذه التوجيهات التي أدّت بهم إلى عادة علميّة غير مسبوقة في تاريخ العلم هي "أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح الكتاب؛ وهي الغرض، والعنوان، والمنفعة، والمرتبة، وصحّة الكتاب، ومن أي صنفه هو، وكم فيه من أجزاء، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه" [29]، ولا يتوقّف التناغُم الإيماني المنهجي مع واحد منهم حتّى يختتم مؤلّفه بكلمتي "**والله أعلم**" دالًّا على ثقته بأنّ مصدر العلم هو الله تعالى، يؤتيه عباده بقدر ليُصلحهم به، وأنّ طلب العلم من مصدره – وهو الحقّ سبحانه– ضرورةٌ وواجبٌ شرعي، وأنّ ما وصل إليه من علم هو دائمًا أبدًا له مزيد، وأنه كلّما ازداد علمًا ازداد يقينًا بأنّ لا مفرّ من التواضع في العلم؛ لأنّ هناك في الأغلب من سيأتي بعلمٍ يتجاوزه ويضيف إليه.

كما أدّى تقديرهم للعلم أنّهم أدركوا ضرورة **تصنيف العلوم**، وكانت بداية هذا التصنيف مع الخوارزمي في "مفاتيح العلوم"، ثمّ الفارابي في "إحصاء العلوم"، لا يقدح في ذلك من أرجعه إلى الكندي لأنه "أوّل من وضع لمفكّري الإسلام التخطيط العام لتصنيف العلوم" [30]، فأضافوا – وكان لهم السبق – إلى شرائط العلم ليكون علمًا فوق موضوعه ومنهجه ونظرياته وقوانينه؛ "أن يصبح قابلاً للتصنيف" [31]، هكذا يرتّب المسلمون نوعين للتصنيف في العلم، تصنيفًا عامًّا للعلوم، وتصنيفًا محدّدًا لكل علم يعرض أبحاثه ويبوّبُها وينظّمها داخله ،كما أدّت نزعتهم التطبيقية في العلم إلى التمييز بين النصوص، وكان دافعهم لذلك

28) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبية الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م ج 1، ص: 3.

29) المقريزي: الخطط، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1998م، ج 1، ص: 8.

30) أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ص: 100

31) محمد عابد الجابري: مقدمة تحقيق كتاب "الكشف عن مناهج الأدلّة" لابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص: 13.

.....
.....

أنّهم مثلما تعلّموا من شروحهم للقرآن، وفصلهم بين النص القرآني وشروحه ، تعلّموا طريقة "**على جهة التعليق**" أي ذكر النّص ثمّ التعليق عليه، واستعملها ابن رشد، وتدلّ على احترام نصوص القدماء لا على تبعيّتها وتقليدها وتقديسها" [32]، فكان هذا المنحى تعبيرًا دقيقًا على تفاعل الإيمانية التي أوجدها النصّ القرآني في نفوسهم، والمنهجيّة التي التزمها العقل المسلم في تطبيقات العلم .

تفرد في المناهج:

كان النصّ القرآني محفّزًا للفكر، هذا الفكر هو المنوط به تشكيل السلوك، لهذا اعتلى الفكر على يد علماء الاسلام درجة السيادة على الأمم في عصوره الأولى، وأميز ما مكّنه من ذلك هو "**العقل التجريبي**"، لذا ليس مستغرباً ما صرّح به سارتون من أنّ "أعظم ما تمخّض عن جهد المسلمين في العلم حتى القرن السادس الهجري هو ترتيب الروح التجريبية"[33]، لم يكتف المسلمون بالتجربة روحاً تنهض في بحثهم العلمي، وإنما أسّسوا بهذه الروح التجريبيّة منهجًا على غير مثال سابق، والصّلة غير منفكّة بين التجربة منهجًا، وأثر التوجيهات القرآنية والنبوية في حركة العقل، لذا اعتبر" أنّ المنهج التجريبي قد أقامه المسلمون منهجًا كاملًا، نشأ وتطوّر نشأة إسلاميّة، يدعو إليه القرآن والسنّة، ومن الفقه انتقل إلى العلم" [34]؛ إذ بلغت درجة تفاعل الفكر في الإسلام مع الواقع أعلى درجاتها، تمّ هذا برعاية من لغة القرآن، التي لم تكن لها قدسية الوحي الإلهي وحسب، وإنما أصبحت اللغة التي بها يكون العلم، وتأسّست بسببها التجربة.

---

32) ابراهيم مذكور، الفارابي، ص: 71.

33) سارتون: تاريخ العلم، ترجمة: إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية، القاهرة، ط 1961، ص: 181

34) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص: 43.

.....

.....

حاول البعض أن يرجع تجريبية العلم عند المسلمين – كما جرت عادة أكثرية المستشرقين ومن يواليهم من المستغربين– لأثرٍ يوناني، لكن ما يبطل هذا الزعم أنّ أحداث الواقع الحياتي بين المسلمين كان مؤديًا إلى تتابع الوحي منجمًا، فأدرك العقل بين المسلمين قوة العلاقة بين النص والواقع، ما أدى إلى توصله تدريجياً إلى التجريبية التي يصح أن يُقال بأنها "تجريبية إسلامية" في نشأتها، لأن مفكري الاسلام حاولوا " أن يضيئوا ما تلقفوه عن الوحي وعن السنة من تراث روحي، وكان سبيلهم في هذا أمران: تمثل الحضارات المحيطة بهم، وإجراء التجارب المبتكرة في فروع من العلم"[35]، وتطورت التجريبية لديهم، وظلت نزعة إسلامية لزمن طويل، ثم "ظهرت خالصة في اعتماد المسلمين على الاستقراء في اكتشافاتهم مناهج العلة، وفي قولهم بالمصالح المرسلة" [36]، ولم تتوقّف التجريبية بين المسلمين على قواعدها من الملاحظة والفرضيات وقوانين العلم، وإنما أشبعوها بروح من تجريبية إيمانية، والتي جمعها البعض في دعائم خمس هي: نفي الخرافة وسعة الاطلاع والرحلات للبحث والتنقيب والتجارب والموازنة،[37] فجاءت الالتفاتة المنهجية معبّرة عن محاولة المسلمين الدائبة لقراءة الوحي وقراءة الواقع معًا، وتوالت عند مفكريهم عصرًا بعد عصر؛ فقد قيل إن الكندي "كانت له في الطب والرياضيات عصمة عن الخرافات والتدجيل" [38]، بهذا أدرك المسلمون أضداد العلم وأبطلوها.

35) أحمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، ترجمة: عثمان أمين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1975م، ص 162

36) ابراهيم مدكور: كتاب الفارابي، ص: 68

37) عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، ط 5، 1989م، ص: 88

38) محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام، المكتبة العلمية، بيروت، ص: 10

.....
.....

استخدم المسلمون **الاستقراء**؛ يقول ابن الهيثم "إذا استقرئت الصور المستحسنة من جميع انواع المبصرات وجد التناسب يفعل فيها من الحسن ما ليس يفعله كل واحد من المعاني الجزئية على انفراده وما ليس تفعله المعاني الجزئية أيضاً التي تجتمع في الصورة باقتران بعضها ببعض" [39]، ويبدو أنه قصد الاستقراء التام، لأنه يقول "جميع" وتشير عبارته إلى أنّ دلالة الشيء في العقل إنما لا تكون في الذّهن إلا بعد وجودها عيانًا في الواقع الذي ندركه، وأنّ هناك من إدراكاتنا للحسن في الأشياء **ثلاثة أنواع:**

الأول: الحسن الموجود في المعنى الجزئي

والثاني: الحسن الموجود في اقتران المعاني الجزئية معًا

والثالث: الحسن الموجود في التنوّع الذي ندركه في الموجودات جميعًا

وكتب القسطلاني في "علم القراءات" في القرن العاشر الهجري بعد أجيال من العلماء سلك طريقتهم، وتميز بما توفّر له من مراجع، وما امتلك من قدرات فاحصة، فاستعان بالمنهج **التاريخي** حين يقول "أُجيلُ فكري فيما دقّقه الأئمة من تصنيفاتهم" ، والمنهج **النقدي** في قوله " أُلخّص مُطوّلها، وأُسهّلُ مُعضلها، وأُفصّل مجملها، وأفتحُ مغلقها، وأُقيّد مطلقها، وأحلّ رموزها، وألِجُ مطالبها" ، كما استعان **بأدوات العلم** في قوله "سائلًا من لقيت من الأصحاب عمّا أشكل، متفهّمًا منه على ما أعضل، ولم أزل أجمع الشيء إلى الشيء" في إشارة إلى الاستقراء، إنّ هذه النصوص ممّا أبدعه علماء الإسلام، تضعُنا أمام عقليّة، إيمانيّة، علميّة، متمكّنة من مناهج العلم وأدواته، من تصنيف، وتدقيق، وضبط، وتبويب، واستقصاء، وتحليل، وموازنة، وإضافة وابتكار.

39) ابن الهيثم: المناظر، نسخة الكترونية من مكتبة المصطفى، ص: 181.

.....
.....

يقول الفارابي في "إحصاء العلوم" إنه كتابٌ يمكِّن الإنسان من أن يقيس بين العلوم، فيعلم أيها الأفضل، وأيّها الأنفع، وأيّها أتقن وأوثق وأقوى، وأيها أوهن وأوهى وأضعف" [40]. إنه يحدد بشكل صريح منهجًا للمقارنة، وإن أسماه "**المقايسة**" ، وإن قصدها بين العلوم لكنها بين أجزاء العلم الواحد أكثر وجوبًا وأشدّ استحقاقًا، وما كان للعقل المسلم أن ينال هذا الحظّ من منهجيّة العلم إلا بأثر من قراءته للوحي، يقول ابن القيّم في التنبيه إلى القياس، وهو أحد أصول الشريعة "اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلًا تتضمّنُ تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم" ، ويكمل أنّ "القياس وضرب الأمثال من خاصّة العقل، وقد ركّز الله تبارك وتعالى في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق ببينهما، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما" [41]، وقد ذكر ذلك ابن الهيثم من أنّ "الإنسان مطبوعٌ على التمييز والقياس، فهو يميّز ويقيس الشيء بالشيء دائمًا بالطبع بغير تكلّف ولا فكر، والإنسان إنّما يُحسّ بأنّه يقيس إذا تكلّف القياس واستعمل الفكر وتمحّل المقدّمات" [42]. إنّه يفرّق بين القياس طبعًا والقياس تكلّفًا، هذا يدلّنا على أنّ علماء الإسلام ما كانوا أرسطيين في أوّل أمرهم بالقياس إنّما قاسوا بالطبع، فلمّا انضاف إليهم درس المنطق تكلّفوا القياس ومهروا فيه وتجاوزوا الصوري منه إلى الشرعي والواقعي والعلمي بمنهجية فريدة، ووردت شواهد عدّة أتاها نبي الإسلام الحق محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأتاها الصحابة؛ مما توطد لاعتماد العقل في استنباط الأحكام الشرعية.

إن النصّ القرآني وهو يحفّز لمنهجيّة الفكر، فإنّه يمارسها، ويدلّل عليها، ويؤسس في عقل المجتهد القوامة للاجتهاد، قيل عن أبي حنيفة إنّ اجتهاده فيما لم يكن فيه نصّ من كتاب

40) الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق: علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1996م، ص: 16.

41) ابن القيّم: أعلام الموقعين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 1423هـ، مجلد 2، ص: 248

42) ابن الهيثم: المناظر، ص: 118

.....
.....

ولا سنّة ولا قول صحابة، فقد كان مرجعه إلى القياس [43]، فهل اطلع المسلمون زمن أبي حنيفة على منطق أرسطو وتداولوه في أحكامهم؟، أم هي فراسة العقل المسلم في تأصيل التفقه في الدين؟، هذا ما جعل البعض يتهمونه بقلّة بضاعته في الحديث، وأنّه كان يُقدّم الرأي على الحديث، ويفنّد السباعي التهمتين معاً بما رواه الشعراني في "الميزان" عن أبي حنيفة أنّه يقول "نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة" ويقول "ما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعلى الرأس والعين بأبي وأمي ليس لنا مخالفته، وما جاء عن أصحابه تخيّرنا، وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال" [44].

هكذا فعلُ الآيات القرآنية ومضامينها في بناء منهجيّة عقلية قادرة على اشتقاق مسار فكري له تفرّده ووجاهته وسبقه، من ذلك أنّ المسلمين عبّدوا طريقاً علميّاً كانوا روّادًا له، فقد قدّم لهم النصّ القرآني ما يحفّزهم لريادته قبل ديكارت بقرون عدّة، وهو "**الشكّ المنهجي**" ، فقد أسّسوا طريقًا علميّا، وأفردوا قواعده، وخصائصه، ودوافعه، ومقدّماته، ونتائجه، لأن إثبات اليقين بالشيء يثبت ضمنيّاً أولية الشكّ فيه ؛ فإنه "لم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره، حتى يكون بينهما حال شكّ" [45]، وقريبًا من هذا النهج مارس ابن الهيثم في الطبيعيات مواقف الشكّ المنهجي للوصول إلى اليقين، يقول "من عادة الإنسان إذا أراد أن يتحقّق معنى من المعاني فإنه يكرر النّظر إليه ويتأمّله ويميز معانيه ويعتبرها فيدرك بالتّأمّل والتمييز وتكرير النظر حقيقة ذلك المعنى" [46]. هو يتكلّم عن إدراك حقيقة الشيء من المبصرات، وما أرساه ابن

43) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص: 438

44) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 455.

45) حسين صبري: رواد الشك المنهجي، دار الضياء، ابوظبي، ط 1، 2011م، ص: 71

46) ابن الهيثم: المناظر، ص: 159.

.....
.....

الهيثم في هذه العبارة يحدد أشراط التحقق واليقين بالمدركات، وهي: تكرار النظر (هذا يصدق في المدركات الحسية والمعاني العقلية) والتأمّل، والتمييز، يقول "كلّما تكرّرت الصورة على النفس ظهر منها ما لم يكن ظهر إذا لم يكن ظهر فيها جميع المعاني التي فيها أوّل أمره، وإذا أدركت النفس من الصورة دقائق معانيها وجميع ما فيها وتحقّقت صورتها كانت أبين في النفس وأثبت في التخيّل" [47]. هذه العبارة تعطي المعنى الدقيق لعملية البحث والتحري في العلم، وتدلّ على حقيقة اليقين والتّقصّي عن الشيء؛ لعلّ هذا ما عناهُ اللفظ الانجليزي (Research) وليس (Search) أي إعادة البحث وتكرار الفحص.

كما لم يتوقّف وعي المسلمين في إدراك غايات النصّ – المعبر عنها في القرآن والسنّة – عند حدّ تطبيقات العلم، وهي أخصّ خصائص الروح العلمية والتي لا يكون العلم علمًا إلا بها؛ وإنّما امتدّ هذا الوعي إلى درس وتحليل الواقع وحاجته الدائمة إلى الفهم والتغيير لإسعاد الانسان، فالدين في أصله إصلاحٌ – مثلما هو عقيدة وشريعة، ولا يتّسع المقام لتتبّع هذا الجهد في كافّة مسارات الدين، وإنّما الاستطاعة ستكون في الكشف عن الخيط الدقيق الرّقيق المتين الذي يسري في أنحائه، أعني الصبغة العلمية التي **توزّعت بين:**

- تأسيس العلم
- تأسيس النظم
- تأكيد الواقعيّة؛ أي تطبيقات العلم

حيث إنّ حقائق القرآن قد شغلت كلّ نواحي الفكر على الجانبين: النظري والتطبيقي، أدى ذلك إلى أن "اكتشف المسلمون منهجًا جديدًا في الحياة، ووضعوه نظريّة كاملة، واستطاعوا

47) ابن الهيثم: المناظر، ص: 188

.....
.....

أن يطبّقوه تطبيقًا علميًّا وعمليًّا رائعًا وأخّاذًا" [48]؛ لعلّ مرجع ذلك أنّهم "اكتشفوا النظام البديع والترتيب العقلاني في كلّ الظواهر" [49]، فما كان للمسلمين أن يتلمّسوا النظاميّة والعقلانيّة في الظاهرات الطبيعية والإنسانية لولا ما أمدّتهم به آيات القرآن من إشارات شتّى تدلّ عليها وتدعو إلى اعتبارها، وفي اعتقادنا أنّ من أرقى ما توصّل إليه وعي المسلمين في مجال العلم هو "**الإسناد**" إذ لا يقلّ قيمة وأثراً عن "**التجريبيّة**" في العلم ، وكان السبق فيه للعقل، حتى قيل: إنّ "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء" [50]، وصحّة الإسناد "لا تُعرف إلا برواية الثقة عن الثقة، والعدل عن العدل" [51]، ورغم أنّ الإسناد قد حظي باهتمام بالغ في مجال العلم الشرعي من علوم القرآن وعلوم الحديث؛ إلا أنّ أثره ملحوظ في كلّ علم أسّسه المسلمون أو أضافوا إليه، يقول القسطلانيّ في علم القراءات إنّه "أعظم مدارك هذا الفنّ، لأنّ القراءات سنّة متّبعة، ونقل محض، فلابد من إثباتها وصحّتها"، ويذكر للإسناد في كلّ قراءة عددها من الرجال إلى أن تنتهي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ومنه الإسناد الصحيح، والحسن، والضعيف، من ذلك ما يرويه في الإسناد الصحيح أنّه "المتّصل الإسناد بنقل عدلٍ ضابط، ثقة، مُتقِن، عن مثله إلى منتهاه، من غير شذوذٍ ولا علّة قادحة" ، ويضرب له مثلاً في قراءة ابن عامر التي يسجّل رجالها خمسة عشر رجلاً تنتهي إلى أبي الدرداء الذي قرأ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقراءة حفص وإسنادها ستّة عشر رجلاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قرأ على رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ويذكر رجال السند بأسمائهم وأحيانًا

48) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص: 35

49) هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ط8، 1983م، ص: 143.

50) الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث، تحقيق: السيد معظم حسين، المكتبة العلمية، المدينة المنوّرة، ط 2، 1977م، ص: 6

51) السمعاني: أدب الإملاء، تحقيق: على زيعور، مؤسسة عزّ الدين للطباعة والنشر، ط 1، 1993م، ص: 76.

.....

.....

بمذاهبهم الفقهية ومواطنهم [52]، هكذا يكون الإسناد **علمًا قائمًا بذاته** وليس أداة للعلم، مما جعله البعض علماً من علوم الحديث، لما بذله علماء الأمّة في سبيل حفظ الحديث وأنّهم بحثوا في كلّ ما يتعلّق بالحديث رواية ودراية، وكان أوّل ذلك التزام الإسناد؛ لأنّ السند للخبر كالنسب للمرء [53]، فكان الإسناد هو العماد الأول لكلّ علم أنجزه المسلمون وليس العلم الشرعي وحسب، وبه تتوفّر للباحثين قضايا جمّة للفحص والتحليل، ومسائل لا تنقضي للبحث والمقارنة والتصنيف، ومجالاً رحباً للإبداع.

وربّما أدى إلى اهتمام المسلمين بالإسناد ما توارثه العرب من مقدرة على الحفظ الشفهي، وذاكرة فائقة في إثبات أيامهم وقصصهم وأشعارهم التي كانت لهم فيما مضى، وهما نوع علم، ظهر في عهد النبوّة، وكان له رجاله، فقد اعتبرت الحلقة العلمية الأولى أنها "كانت في الصحابة، أصحاب الرأي"[54] فلم يكن من الصحابة من يجترئ على النصّ ولا على إسناده، وتوزّعت فيهم ملكات الحفظ، والفهم، والتفسير، والرواية، والفتيا، والتأريخ، والبيان؛ فكان منهم بدايات العلم الذي أدركه العقل فيما بعد منظّماً مصنّفاً منهجيّاً، إذ لولا جهد الصحابة في صنع النواة الأولى للعلم ما كان العلم، ورغم أن معينهم كان واحدًا، فقد تنوّع إسهامهم، وهذا واحد من المظاهر التي دلّت على عمق وعيهم بدينهم، فممن يوصف بأنه من الطبقة الأولى في العلم من الصحابة: عمر بن الخطاب رضي الله عنه "حيث لا يوجد له كثير من الأقوال في تفسير القرآن ولا جمع الحديث، لكن ميزته الكبرى قوّته الفطرية في الحكم على الأشياء، على عكس ابنه عبد الله بن عمر؛ فإنّه جمّاع للحديث"[55]، ما يدلّ

52) القسطلاني: لطائف الإشارات، تحقيق: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ج 1، ص: 171 وما بعدها.

53) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2، 1988م. ص: 220 وما بعدها.

54) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص: 59.

55) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 146، 147

.....
.....

على قدرات الصحابة منفردين على صياغة الأسس الأولى **لبناء العلم** بهدي من قراءة وفهم النص القرآني، إذ كانت استعداداتهم ومواهبهم الفطرية هي ما تحدد للصحابي اختيار وسلوك النهج الذي ينبغ فيه، وظلّت هذه طريقة للعلم في المسلمين، يذكر صاحب الفهرست عن الخليل بن أحمد أنه "كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس، وهو أوّل من استخرج العروض وخصّ به أشعار العرب. وكان من الزّهاد في الدينا المنقطعين إلى العلم" [56]، لنستخلص من قوله الاهتمام بالتخصص في العلم، والقدرة على التميز فيه والابتكار، وتحديد موضوعه وغايته، والحرص على أن يكون العلم في مأمن أخلاقي، فلم يحرص العلماء في ظلّ الوعي الحق بالإسلام قدر حرصهم ألا ينقطع العلم بعدهم في الأمة، لهذا كان لأبي حنيفة ذكره في تاريخ الفكر في الإسلام "بما وطّد من أركان الفقه وما أخرج للدنيا من علماء أجلّاء"[57]، وأسّس الشافعيّ **علمًا للأصول** في مجال الفقه بالدين، وكانت غايته البيان، وهو "جماع ما أبان الله لخلقه في كتابه" [58]، فأرسى علماً، ووضع مصنّفًا في العلوم الدينية على منهج علميّ[59]، كان من نتائجه أن أنتج المسلمون **تفكيرًا منطقيًّا** جديدًا خاصًّا بهم، وصار هذا العلم بعد الشافعي والمعتزلة والأشاعرة منهجًا للأصوليين، علماء أصول الفقه، وعلماء أصول الدين،[60] فكانت المنافسة في العلم ميدانًا رحبًا لمفكري الإسلام، قيل إنّ المعتزلة قد توفر لهم نخبة من المفكرين، تعاصروا أو تلاحقوا، وتنافسوا في البحث والدراسة في حرية وطلاقة؛ فعارض الزميل زميله، والتلميذ أستاذه، وفي هذه المعارضة قوّتهم وضعفهم في آن واحد، لكنهم "هم

56) ابن النديم: الفهرست، ج 1، ص: 48، وحسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص: 265

57) مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص: 439.

58) الشافعي: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 121.

59) مصطفى عبد الرزاق: التمهيد، ص: 232

60) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص: 54

.....
.....

الواضعون الحقيقيون لعلم الكلام، ولا تكاد توجد فكرة هامة فيه إلا ولها أصل لديهم" [61]، ولم تكن غاية الكثيرين من علماء الإسلام في العلم هو بناء مجد شخصي يُحسب للواحد منهم، ولا موالاة لسلطة – رغم ما أشيع وثبت عن بعضهم– وإنما كان غالبه جهدًا وإخلاصاً لحاجة إسلامية أوجبها نظرهم في النّصّ وإدراكهم للواقع، وما اقتصر على العلم الشرعي، وإنما امتدّ للعلم الطبيعي والرياضي، والإنساني، لأنهم "أدركوا فضل العلم، واتساع مجالاته وانّ الاستفادة من هذا الكون إنما هي هدف من أهداف الاستخلاف على هذه البسيطة" [62]، فليس من المبالغة في القول: "إنه لا وجود للكيمياء كعلم قبل العرب" [63]، ورغم شعف ابن حيان بالكيمياء وعلمه بها، فقد درسها دراسة وافية، ووقف على ما أنتجه السابقون، لكن عبقريته كانت في "تغييره الأوضاع ، وجعل الكيمياء تقوم على التجربة والملاحظة والاستنتاج"[64] ، وأبدع الخوارزمي وأسس لعلوم رياضيّة وأنجز النظام العددي ومعنى الخانات وقيمتها، والصفر والدور الذي يمثله، ولم تكن العملية مجرد إحلال أرقام محل أرقام "بل كانت تحولاً كاملاً في طرق الحساب والتفكير" [65].

وهكذا شاعت إبداعات المسلمين في كلّ صنوف العلم مما دل على **موسوعية العلماء** واتساع جهدهم العلمي، فعلى همّة الكندي في الفلسفة كان "أول من وضع قواعد علم الموسيقى، فشقّ الطريق أمام الفارابي ثم ابن سينا، وهما اللذان تطوّرا بهذا العلم وهذّباه، حتى انتهى إلى أن يصبح علماً بمعنى الكلمة"[66]. وارتفعت همّة العلماء في الإسلام لتطال

61) ابراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية، ج 2، ص: 36

62) شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة، ج 1، ص: 15

63) المرجع نفسه، ج 1، ص: 14

64) قدري طوقان: علماء العرب، ص: 99.

65) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 74.

66) الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، ص: 161.

.....
.....

جوانب العلم، حتّى إنها لم تغفل عن تنمية الإنسان وقدراته، ورُغم أنّهم تلقّفوا بعضًا من بدايات هذا العلم عن اليونان، فعقلوه، لكنهم أضافوا وأكسبوا العلم وجهه الشرعي، واستدلّوا عليه بالنصّ القرآني، والنصّ النبويّ، ولم ينعزلوا بعلم عن واقعهم، من ذلك علم الفراسة، الذي عرفه العرب قديماً، ثمّ اطلعوا على ما كتبه اليونان فيه، وأبقوا على ممارسته، وبرع فيه الكثير من الناس، وفي القرآن آيات تدلّ على أصول العلم، يقول فخر الدين الرازي عن الفراسة أنها "الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة" [67]، وكانت غايته إصلاح النفس؛ لأنّ المرء إذا لم يزجره العلم أو الدين فإنه صائر إلى الأوهام" [68]، فقد أصبح الاهتمام بالعلم – نقلًا وتأسيسًا وإضافة – يشكل حركة عقلية عامة بين المسلمين، ويصعب في هذا المقام حصر مظاهر هذا الاهتمام، وإنما حسبنا أن بداهة العقل تُطلعنا أنّ عطاء العلم أبداً لا ينضب، وإنما يأتي العلم في جهد المجتهدين الذي يجدُّ الواحد منهم في قراءة واعية للنصّ القرآني؛ فبفضله نشأ علم التفسير وحوّل النصّ القرآني نشأت "علوم البلاغة وسيلة للكشف عن سرّ إعجاز القرآن، وعلم الفقه وأصوله وسيلة للكشف عن تشريعاته وأحكامه ، وعلم النحو والصرف وسبيلة لضبط ألفاظه وفهم معانيه، وعلم الكلام وسيلة لتجلية عقائده ومساندتها بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، والعلوم الكونية والطبيعية وسيلة للكشف عما أودعه الله كتابه واسترعى إليه أنظار عباده من دلائل قدرته وأسرار ملكوته، وعجائب مخلوقاته التي بثّها في الأنفس والآفاق"[69]، إذ تظلّ التفاتة العقل عند المسلمين حاضرة ما دام هناك وعي بضرورة الربط في العلم بين تأسيس العلم والعمل

67) الرازي: علم الفراسة، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط 2002م، ص: 11

68) جرجي زيدان: علم الفراسة الحديث، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ص: 9.

69) محمد حسين الذهبي: علم التفسير، دار المعارف، القاهرة، ص: 9

.....
.....

بـه، فقـد كـان هاجسـهم هـو الـربط بـين الفكـر فـي تـدبر الـوحي، والواقـع الـذي هـو فـي حاجـة لإعمال هذا الفكر.

خاتمة البحث:

توصلت دراستنا الى جملة من النتائج، منها:

- إن نتاج العقل المسلم في قراءته للنص القرآني – عبر العصور الأولى – أكبر من أن تتم الإحاطة به، ففي كل ركن من أرجاء الفكر بين المسلمين يُطل إبداع، وتعلو إضافة، ويتأسس علم، وينمو منهج، ويتسع أفق، ويمتد نظر.
- إن النص القرآني وهو يدفع الى العلم فإنه يتجنب المباشرة في توجيهاته، إنه يمد المجال فسيحًا للعقل أن يقرأ ويفهم ويبدع ويطبّق لانتزاع العلم من مكامنه في آيات الله المسطورة (النص) وفي موجوداته المنظورة (الواقع).
- إن أول واجبات العقل المسلم؛ هو التدبر والفهم لاستقراء العلم والالتزام بالروح العلمية، لكي تظل العقلية المسلمة دالة على الموسوعية والتخصصية في العلم، والتجريبية، والإسناد، والمنهجية، وهي التي قادت الفكر إلى التراكمية في العلم وميزت جهد العقل المسلم في تدبر آيات الوحي.
- إن تدبر المسلمين في النص القرآني مع قراءتهم للواقع؛ هو من أوصل العقل المسلم إلى تطبيقات العلم، والربط بين النظرية والتطبيق، وإلى الواقعية في العلم.
- إن الدراسة توصي بقيام جهود علمية دائبة؛ لتوكيد نسبة إسهامات المسلمين العلمية للعقل المسلم، وإلى البناء عليها وفق أحدث ما قدَّم العلم المعاصر من معطيات وإمكانات هائلة.

مراجع الدراسة:

أولاً: الكتب العربية

1. ابراهيم مدكور: الفارابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1983م
2. ابراهيم مدكور؛ في الفلسفة الإسلامية، سميركو للطباعة والنشر، القاهرة
3. ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء، تحقيق: نزاررضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت

.....
.....

4. ابن القيّم: أعلام الموقعين، تحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، دار ابن الجوزي، السعودية، ط 1423هـ
5. ابن النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران، 1971م
6. ابن الهيثم: المناظر، نسخة الكترونية من مكتبة المصطفى
7. ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية
8. ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة، تحقيق: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، لبيروت
9. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1
10. ابن قتيبة: أدب الكاتب، تحقيق: محمد الوالي، مؤسسة الرسالة، بيروت
11. أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 10
12. أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط12، 1972م
13. أحمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، ترجمة: عثمان أمين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1975م
14. أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية العامة، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة
15. الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م
16. جرجي زيدان: علم الفراسة الحديث، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة،
17. الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث، تحقيق: السيد معظم حسين، المكتبة العلمية، المدينة المنوّرة، ط 2، 1977م
18. حسين صبري: رواد الشك المنهجي، دار الضياء، ابوظبي، ط 1، 2011م
19. الخطيب الإسكافي: درّة التنزيل وغرّة التّأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أمّ القرى، السعودية، ط 1، 1418هـ
20. الخوارزمي: كتاب الجبر والمقابلة، تقديم وتعليق: علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد، مطبعة بول ماربيه، 1937 م
21. الرازي: علم الفراسة، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب، القاهرة، ط 2002م
22. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة
23. الزمخشري: الكشاف، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكل، الرياض، ط1، 1998م
24. زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط8، 1983م
25. سارتون: تاريخ العلم، ترجمة: إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية، القاهرة، ط 1961م

.....
.....

26. السمعاني: أدب الإملاء، تحقيق: على زيعور، مؤسسة عزّ الدين للطباعة والنشر، ط 1، 1993م
27. الشافعي: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت
28. شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة، دار الأنصار، القاهرة
29. عبد الحميد محمد أبو سكين: المعاجم العربية، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 1981م
30. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط9، 1995م
31. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية، بيروت، ط 5، 1989م
32. الفارابي: إحصاء العلوم، تحقيق: علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 1996م
33. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 3، مارس 1978م
34. قدري حافظ طوقان: علماء العرب؛ منشورات الفاخريّة، الرياض
35. القسطلاني: لطائف الإشارات، تحقيق: عامر السيد عثمان وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1972 م
36. الكندي، رسائل الكندي الفلسفية (كتاب الكندي إلى المعتصم) تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة
37. محمد حسين الذهبي: علم التفسير، دار المعارف، القاهرة
38. محمد دراز: من خلق القرآن، مطبوعات إدارة الشئون الدينية، قطر، 1979م
39. محمد صدّيق المنشاوي: مقدّمة تحقيق معجم التعريفات للجرجاني، دار الفضيلة، القاهرة
40. محمد عابد الجابري: مقدمة تحقيق كتاب "الكشف عن مناهج الأدلّة" لابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت
41. محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 2، 1988م
42. محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام، المكتبة العلمية، بيروت
43. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها من التشريع، دار الورّاق للنشر والتوزيع، الرياض
44. مصطفى عبد الرزاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة
45. المقريزي: الخطط، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1998م

.....
.....

ثانياً: كتب بالإنجليزية:

1. Ali Ansari: Sufism and beyond, Mapin Publishing, Ahmed abad, India. 1999
2. Oliver Leaman: An Introduction to classical Islamic Philosophy. Cambridge University press. United Kingdome
3. Reza Aslan: No God but God, Random House Trade Paperback, New York, 2011